مجلة العلوم الإنسانية
Journal of Human Sciences
www.Suj.sebhau.edu.ly
Received 12/10/2016 Revised 01/06/2017 Published online 04/07/2017

خطاب النهضة العربية وتحرير المرأة(قاسم أمين نموذجاً)

المهدى الفرجاني مهدي
قسم الفلسفة–كلية الاداب–جامعة سبها، ليبيا

الملخص: إن اهتمام "قاسم أمين " بقضية المرأة يدخل ضمن إشكالية النهضة؛ لأن إثارة هذه القضية يستدعى بالضرورة قضايا أخرى، كالتعليم وحرية المواطن، وغيرها من القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؛ فقاسم أمين يرى أن تحرير المرأة من استبداد الرجل يؤدي إلى التخلص من الاستبداد السياسي فيتحقق بذلك التقدم والحرية للشعب بكامله، فهو في تفكيره لم يكن بمعزل عن اهتمامات "الطهطاوي" والإمام "محمد عبده"، كما أنه جعل تفكيره مجرد استجابة امتثالية في إطار التبعية الفكرية للغرب.

مقدمة: يبدو أن موضوع تحرير المرأة عند "قاسم أمين" يثير إشكالية كبيرة تتلخص في هذا التساؤل: هل كان "**قاسم أمين** " مصلحاً اجتماعياً باراً بأبناء مجتمعه ووطنه، ومعبراً عن أمانيهم في التطور، أم أنه كان موجهاً من قبل الغرب مردداً لقيمه التي تتعارض مع الإسلام، ومن ثَمّ كان ينفث سماً أحسن إخفاءه؟ الحقيقة أننا وجدنا لدى الكتّاب العرب من يأخذ بوجهة النظر الأولى ويؤكد أن "**قاسم أمين**" كان رائداً للحركة الفكرية والاجتماعية لتحرير المرأة، دافع عنها وأشاد بأهميتها ومكانتها في المجتمع. ومن هؤلاء الكتّاب "**محمد عمارة**" الذي قدم لأعماله الكاملة، حيث يقول: "فلقد أيده (يقصد **محمد عبده**) ودافع عنه بطريقة غير مباشرة، وامتنع عن التعليق عليه أو المشاركة بشكل مباشر في المعارك التي دارت من حوله، وبالذات عندما أراد خصومه إحراجه وطلبوا منه أن يفتي – بحكم منصبه الرسمي– في الموضوع. أما دفاعه –غير المباشر– عن الكتاب "**تحرير المرأة**" فيتمثل في وقوف الشيخ رشيد رضا ومجلة **المنار** إلى جانب الكتاب، فلقد تناولت **المنار** الكتاب بالمدح والتقريظ أكثر من مرة، واعتبرته مع **رسالة التوحيد** للأستاذ الإمام، و(سر تقدم الإنجليز **السكسونيين**) الذي ترجمه فتحي زغلول أهم الأعمال الفكرية في ذلك العصر"[1] وقد كان البعض الآخر من الكتّاب العرب يأخذ بوجهة النظر المعارضة، ويرى في دعوة "قاسم أمين " انفصالاً عن الواقع العربي الإسلامي، وارتماءً في أحضان أوروبا وحداثتها. أبرز ممثلي هذا الرأي "ملك حفني ناصف" (**1886–1918**)، حيث رفضت أفكار "قاسم أمين" في تحرير المرأة، وعارضتها بشدة بوصفها أفكاراً مخالفة للثقافة العربية الإسلامية. ونتساءل: هل كانت كتابات "قاسم أمين "حول المرأة، تدعو إلى إعادة النظر في التراث العربي بأكمله؟ سنرى ذلك عندما نتناول فكرة، لكن، قد يكون التعرض لبعض مراحل حياته، قبل ذلك، فائدة في توضيح أفكاره.

حياته: << ولد **قاسم أمين** لأب تركي عثماني وأم مصرية من صعيد مصر...فوالده" **محمد بك أمين**" كان، قبل مجيئه إلى مصر واستقراره بها، الوالي التركي على إقليم <<**كردستان**>>، إحدى ولايات الدولة العثمانية في ذلك التاريخ. وعندما ثارت <<**كردستان**>>ضد الدولة العثمانية، وأعلنت استقلالها وانفصالها عن الأستانة، كان واليها محمد بك أمين في الأستانة، فظل بها، حتى منحته الدولة، عوضاً عن إمارته، إقطاعات في مصر، بإقليم <<**البحيرة**>>، قرب مدينة <<**دمنهور**>> فنشأت علاقته بمصر، وقرر الإقامة بها، وكان ذلك في بداية عهد الخديوي إسماعيل. وفي مصر تزوج **محمد بك أمين** إحدى بنات أسرة مصرية من صعيد مصر، هي ابنة **أحمد بك خطاب** ، شقيق **إبراهيم خطاب باشا**. وفي مصر كذلك التحق محمد بك أمين بالجيش المصري على عهد الخديوي **إسماعيل**، وفيه ارتقى حتى بلغ رتبة<<**أمير الاى**>> ، وشغل مركز قائد سلاح المرابطين>>[2]. يظهر مما سبق، أن "**قاسم أمين**" قد ولد ونشأ في مصر؛ لأن الخلاف الذي ظهر حول محل ميلاده، لم يتجاوز القطر المصري، حيث بدأ الخلاف بين أن يكون محل ميلاده في الاسكندرية أو في ضاحية <<طرة>> بالقرب من القاهرة. <<وفي **الاسكندرية** قضى قاسم أمين أولى سنواته في التعليم ...فلقد دخل مدرسة <<**رأس التين**>> الابتدائية، وكانت يومئذ مدرسة أبناء الارستقراطية من أبناء الأتراك والشراكسة والأثرياء. وبعد حصول قاسم على الشهادة الابتدائية انتقلت الأسرة من الاسكندرية، واستقر بها المقام في القاهرة، وسكنت في حي الارستقراطية القاهرية يومئذ، حي <<**الحلمية**>> والتحق قاسم بالمدرسة التجهيزية –الخديوية –...وفي هذه المدرسة دخل **قاسم أمين** القسم الفرنسي. وبعد المرحلة التجهيزية التحق قاسم بمدرسة الحقوق والإدارة – وهي مدرسة عليا كانت البديل لكلية الحقوق في غياب الجامعات – ومنها حصل على <<**الليسانس**>>، وهو في العشرين من عمره ، سنة **1881م**....

وكان قاسم أمين أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغاني ومدرسته الفكرية التي ازدهرت بمصر في ذلك التاريخ ""[3]. وكان "**قاسم أمين**" أحد تلاميذ<< **الأفغاني**>> الذين تأثروا بأفكاره، التي تؤكد على تنقية الدين من كل ما علق به من الأوهام ، كما أنه بحكم صداقته للشيخ<< **محمد عبده**>> فقد أخذ عنه تصوره الحق للدين، من حيث قدرة هذا الدين على مواكبة العصر، وتطوير حياة المجتمع العربي الإسلامي. التحق "**قاسم أمين**"، بعد حصوله على **الليسانس**، بالعمل في **المحاماة**، لفترة قصيرة، سافر بعدها في بعثة دراسية إلى **فرنسا**، لينهي دراسته القانونية سنة **1885م**. خلال فترة دراسته قرأ للعديد من مفكري أوروبا الكبار، وبعد عودته إلى **القاهرة** تم تعيينه بالقضاء، وترقى إلى عدة مناصب، لعل أهمها **رئيس نيابة** في المحاكم المصرية. أما الحالة الاجتماعية **لقاسم أمين** ، فقد << تزوج في سنة **1894م**... من ابنة أمير البحر التركي **أمين توفيق**، وكان صديقاً لوالد **قاسم أمين**، وكانت قد أشرفت على تربية زوجته هذه، في طفولتها وصباها، مربية إنجليزية ...ولقد أنجب بنيته : **زينب**، التي أحضر لها مربية فرنسية، و**جلسن**، التي أحضر لها مربية إنجليزية >> [4]. ولما كان "**قاسم أمين** " يرى أن بداية الإصلاح ومنطلقه ، يجب أن يكون بتربية المرأة، فإن اختياره لمربية **(فرنسية أو إنجليزية)** لتربية بنتيه يظهر مدى تعالي "**قاسم أمين** " على المجتمع العربي الإسلامي في علاقاته وتحولاته الاجتماعية. <<وخارج نطاق العمل القضائي امتد نشاط "قاسم أمين"، فكتب في صحيفة **(المؤيد)** عدداً من المقالات دون توقيع، وأصدر كتابه(المصريون –بالفرنسية– سنة**1894م** يرد به هجوم الدوق الفرنسي "**داركور**" على مصر والمصريين، كما أصدر(**تحرير المرأة**) سنة**1899**م ، و(**المرأة الجديدة**) سنة**1900م**، كذلك شارك في نشاط (**الجمعية الخيرية الإسلامية**)، وكانت تنشئ المدارس للفقراء وتنهض بضروب من الخدمة والمساعدات للمعوزين والمنكوبين>>[5].

توفى "**قاسم أمين**" في أبريل سنة **1908م**.

مقالاته:

(1) **الكلمات:** وهي خواطر ولمحات كتبها " قاسم أمين" في مفكرته الخاصة .

(2) **أسباب ونتائج:** وهي خمس عشرة مقالة نشرها " قاسم أمين " في صحيفة المؤيد، وكانت تتضمن عدداً من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي تهم دعاة الإصلاح.

(3) **أخلاق ومواعظ:** وهي خمس مقالات كتبها في المؤيد، دون توقيع، وكانت تقتصر على معالجة مشكلات الموظف والوظيفة.

فكره: يبدو أن البداية الأولى في الاهتمام بقضايا المرأة، كانت متضمنة في اهتمامات خطاب النهضة عموماً، ومنذ بدايته، فقد أثاره "**الطهطاوي**" **(1801-1873م)** ضمن السياق العام لفكره. ففي كتابه(**المرشد الأمين للبنات والبنين)** يطرح "**الطهطاوي**" أهم قضايا المرأة المصرية، والمتمثلة في دعوته لتعليم البنات بالمساواة مع الصبيان؛ لتحقيق عدة أهداف، منها: الزواج المتجانس، وضمان التربية الصالحة للأولاد. <<مما لاشك فيه أن ملاحظة "**الطهطاوي**" للمجتمع الغربي ومقارنته بالمصري جعلته يعي العلاقة بين تعلم المرأة ودورها في العائلة والمجتمع والعمل، وهي مسائل شديدة الأهمية ، لكنه لم يدع إلى خروج النساء من خدورهن والاشتراك في الحياة العامة، بينما شدد على مسألة العدل في تعدد الزوجات وحث على معاملة المرأة بشكل أفضل ضمن العائلة.>>[6]. لكن التطور النوعي في معالجة قضايا المرأة قد بلغ ذروته مع إسهامات "قاسم أمين" التي اعتمدت على أفكار" محمد عبده" وفتاويه. ففي مسألة تعدد الزوجات <<يلفت انتباهنا خوض محمد عبده فيها بطريقة متحررة إلى أبعد الحدود، وقد جاء في مقالة (حكم الشريعة في تعدد الزوجات) الصادر بالوقائع المصرية في **8** مارس **1881م** أن (بعضهم استغل قوله تعالى :﴿ **فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ**﴾ طريقاً لصرف الشهوة واستحصال اللذة لا غير. ولم يدروا أن هذه الآية مقيدة بالآية الأخرى ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً**﴾ والعدل متعذر إلا على النفر القليل، وبديهي أن في تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة.>>[7] ولعل هذا ما جعل "محمد عمارة " ينسب إلى الشيخ بعض فصول << **تحرير المرأة**>> لقاسم أمين ومنها: تعدد الزوجات– الحجاب– الطلاق[8]. ويبدو أن "**البرت حوراني**" يؤكد ذلك بقوله :<<يتبع قاسم في جميع المواضيع التي يعالجها طريقة محمد عبده، فيحدد العرف الإسلامي بحذر، عوضاً عن التخلي عنه، لقد لقبه الجيل اللاحق بنصير المرأة، لكنه لا يستحق هذا اللقب، فهو لا يقترح مثلاً أن تمنح المرأة حقوقاً سياسية، إلا أنه، مع إقراره بأنه ما من سبب مبدئي يحول دون ذلك، فهو يعتبر المرأة المصرية بحاجة إلى وقت طويل من التثقيف الفكري قبل أن تصبح جديرة بالاشتراك في الحياة العامة، وهو، كمحمد عبده، يخاطب الذين لا يزالون يؤمنون بالإسلام، فيستند في كل موقف يتخذه إلى القرآن والشريعة بعد تفسيرهما التفسير الصحيح أو ما يعتبره التفسير الصحيح.>>[9]. يقتفي "**قاسم أمين**" في خطابه حول المرأة ،أثر "**الطهطاوي**" ليؤكد ما أثاره الأخير – بوحي من خبرته بحالة المرأة في باريس – حول تعليم المرأة وتحريرها، من خلال محاولة

التوفيق بين مقتضيات الحداثة ودواعي الأصالة العربية الإسلامية.

لذلك يمكن القول:<<لم يكن من الممكن لخطاب النهضة أن يناقش مسألة مرجعية الشريعة، خاصة وقد تأسست بنيته على أساس عدم التعارض بين التقدم وبينها، إن من أهم أطروحات خطاب النهضة– كما يتمثل في خطاب محمد عبده الذي يعد أستاذاً مباشراً لقاسم أمين– أن <<**الإسلام**>> هو دين الحرية والمدنية والتقدم. إن التعارض بين التقدم الذي تمثله أوروبا وبين الإسلام ينشأ عن <<**الجهل**>>بالإسلام وعن التقاليد البالية التي ألصقت خطأ<<**بالإسلام**>>[10]. إذن، وتبعاً لخطاب النهضة العربية، فإن<<**الجهل**>>بالإسلام هو السبب الحقيقي لانحطاط العالم العربي الإسلامي. ولذلك يرى "قاسم أمين " أن السبب الحقيقي للفساد هو <<زوال الفضائل الاجتماعية، أي زوال<<**القوة المعنوية**>>، وما سبب ذلك إلا الجهل، الجهل بالعلوم الحقيقية التي منها وحدها يمكن استنباط قوانين السعادة البشرية، ويبدأ هذا الجهل في العائلة، فالعلاقة بين الرجل والمرأة، وبين الأم والولد، إنما هي أساس المجتمع، والفضائل القائمة في العائلة هي ذاتها الفضائل التي تستمر في المجتمع، وما دور المرأة في المجتمع إلا<<**إصلاح أخلاق الأمة**>>، وفي البلدان الإسلامية لم يرب الرجال ولا النساء التربية اللازمة لإنشاء حياة عائلية حقيقية.>>[11]. ولما كانت الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل، تمثل أحد انعكاسات الحداثة الغربية على دائرة الثقافة العربية الإسلامية؛ فإن<<**قضيةالمرأة**>> كغيرها من قضايا خطاب النهضة العربية، تعاني ازدواجية المرجعية. إن الدعوة لمساواة المرأة بالرجل في المجتمع العربي الإسلامي تصدر عن عدّ **(الرجل)** أصلاً ينبغي أن تتساوى به **(المرأة)** لتكون حرة وفاعلة. ويبدو أنه <<في نبرة خطاب<<**المساواة**>>و<<**المشاركة**>>إحساساً بالتفوق نابعاً من افتراض ضمني يحمله الخطاب بمركزية الرجل/المذكر، فالمرأة حين تتساوى فإنها تتساوى بالرجل، وحين يسمح لها بالمشاركة فإنها تشارك الرجل، وفي كل الأحوال يصبح الرجل مركز الحركة وبؤرة الفاعلية. ويبدو الأمر كأنما هو قدر ميتافيزيقي لا فكاك منه ولامناص، وكأن مرحلة سيادة الأنثى في بعض المجتمعات الإنسانية، وكأن فاعلية المرأة في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية فاعلية هامشية لا تكتسب دلالتها إلا من خلال فاعلية الرجل.>>[12]. إن مركزية **(الرجل)** في الثقافة العربية الإسلامية تؤكد مدى التفريق بين الرجل والمرأة، وهو أمر يتشابه تماماً مع مركزية الحضارة الغربية بالنسبة لبقية شعوب العالم. ذلك لا يبرر سوى الإحساس بالتفوق، لدى الرجل في خطاب النهضة العربية ، ولدى الغرب في حضارته. ولعل التراث العربي قد تضمن ذلك التفريق حينما نجد<<أن <<**التذكير**>> هو الأصل الفاعل والمؤنث فرع لا فاعلية له، وبحكم هذه الفاعلية للمذكر من حيث هو الأصل، تصر اللغة العربية على أن يعامل الجمع اللغوي معاملة<<**جمع المذكر**>>حتى ولو كان المشار إليه بالصيغة جمعاً من النساء بشرط أن يكون بين الجمع رجلاًواحداً. هكذا يلغى وجود رجل واحد مجتمعاً من النساء، فيشار إليه بصيغة جمع المذكر لا بصيغة جمع المؤنث.>>[13]. يبدو أن تميز الرجل في مقابل المرأة، هو تقليد راسخ في الثقافة العربية، تؤكده اللغة باعتباره وضعاً قد تم التكيف معه وجدانياً بفعل الوراثة. وإذا كان ذلك هو واقع **(المرأة)** في الثقافة العربية الإسلامية، فهل كان "قاسم أمين " متمرداً على القيم الإسلامية في كتابيه: << **تحرير المرأة**>>و<<**المرأة الجديدة**>>؟

"قاسم أمين" وخطابه حول المرأة:

ولما كان خطاب النهضة يعاني من وطأة بعدين، يدخلان ضمن بنيته **هما:**

بُعد التقدم الذي تمثله الحداثة الغربية بكل إنجازاتها، وبُعد التراث العربي الإسلامي؛ فإن ذلك قد جعله يعيش ثنائية النظرة **(تقليد/حداثة)**، إلا أنه دائماً يتعسف في ترجيح كفة**(الحداثة)** حيث يخضع مفهوم **(التقليد)** في دلالته لمفهوم **(الحداثة)**؛ لأن التقليدي –حسب ذلك الخطاب– سكوني لا تاريخي، يجب عليه الاعتماد على **(الحداثة)** كنموذج عالمي. << وهكذا تنعكس الآية فتصبح نقاط قوة الشعوب والمجتمعات المغلوبة أي تاريخ مقاومتها للغالبة نقاط ضعف منسية وتعرض وكأنها فترات يسودها العجز والانغلاق والتقوقع والتخلف. ولكن من قلب التاريخ رأساً على عقب؟ إنه الغالب الذي تعطيه قوة غلبته القدرة على أن يعمم رؤيته للتاريخ ويقولب بها المغلوب في الفكر والثقافة والرؤى والقناعات.>>[14]. لذلك فإن أهم أطروحات خطاب النهضة العربية، كانت تتمثل في عدم معارضة الإسلام للحداثة الغربية، بوصفه دين التقدم والحرية. و"**قاسم أمين**" لا يخرج عن ذلك حيث يقول :<<وبالجملة فليس في أحكام الديانة الإسلامية ولا فيما ترمي إليه من مقاصدها ما يمكن أن ينسب إليه انحطاط المرأة المسلمة، بل الأمر بالعكس فإنها أكسبتها مقاماً رفيعاً في الهيئة الاجتماعية. لكن وأسفاه قد تغلبت على هذا الدين الجميل أخلاق سيئة ورثناها عن الأمم التي انتشر فيها الإسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عوائد وأوهام ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الأمم حداً يصل بالمرأة إلى المقام الذي أحلتها الشريعة فيه وكان أكبر عامل في

استمرار هذه الأخلاق توالى الحكومات الاستبدادية علينا.>>[15] إن اعتماد مبدأ عدم التعارض بين الحداثة والإسلام، قد جعل "قاسم أمين" ينسب انحطاط المرأة المسلمة الى الجهل بالإسلام، وهو رأى فيه تعميم. << وكان ينبغي على قاسم أمين وبحكم دراساته السياسية والقانونية والاجتماعية، أن يتجنب تماماً هذه التعميمات الخاطئة، والمقدمات غير الصحيحة التي لابد أن تؤدى به بالتالي إلى نتائج خاطئة ومجانبة للصواب>>[16]. ويبدو أن سطوة الإحساس بالفارق تمارس تأثيرها العميق في تفكير" قاسم أمين "، ومن شأن هذا النمط من التفكير أن لا يتقيد بمعطيات الواقع. فهو لم يفسر الواقع، ولم يقدر الإمكانيات المطابقة لتغييره؛ لأنه محكوم بسلطة**(النموذج)**، كأصل يقاس عليه، وهو أمر يفقد الذات استقلالها، ويجعلها لا تعى الأصالة والمعاصرة معاً. وعندما يكون<< الخطاب، أي خطاب، محكوماً بـــــــ << **سلف**>> معناه أنه خطاب لا يرى الواقع كما هو، لا يعبر عنه ولا يعرف به، وبالتالي لا يرى المستقبل إلا من خلال << **التماثل**>> الذى يقيمه في ذهنه لـــــــــــ << **السلف** >> الذى يستكين إليه، بل يستسلم له، فهو إذن، خطاب وعي مستلب >>[17]. ولما كان " **قاسم أمين** " يفترض مطابقة منظومة الحداثة الغربية للواقع العربي الإسلامي، فإن تبريراته ليست إلا ممارسة دفاعية، تقوم بالتأويل من أجل تحقيق التوافق والمطابقة. إن ذلك يؤكده قوله: << نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيماً في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها ومبانيها وطرقها، بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل، أما من جهة العلوم والصنائع فلا يوجد اختلاف إلا من حيث كونها تزيد أو تنقص في أمة عن أمة أخرى. ...أنظر إلى البلاد الشرقية، تجد أن المرأة في رق الرجل، والرجل في رق الحاكم، فهو الظالم في بيته مظلوم إذا خرج منه>>[18]. يتضح من ذلك، مدى تلازم خطاب "**قاسم أمين**" حول المرأة، مع القضية السياسية، فهو حينما يتحدث عن حرية المرأة يتضمن ذلك الحرية العامة، حتى يبدو أن القضيتين مرتبطتان ارتباط العلة بالمعلول. << فالحرية في نظر قاسم أمين تعني المدنية والتقدم، وحرية المرأة أساس جميع الحريات ومعيار لها، والحجج المستعملة ضد حرية المرأة أي نوع كانت إنما هي ضد الحرية العامة ككل، وكأنما هنالك سلسلة متواصلة الحلقات، فالمرأة في رق الرجل، والرجل في رق الحاكم والرجل الظالم في بيته هو مظلوم إذا ما أصبح خارجه، وحيثما ظلمت المرأة وسلبت حرياتها ظلم الشعب بأكمله، فالحياة الكريمة أساسها الحرية، واحترام الحقوق الشخصية في المنزل وخارجه، فالحرية وحدة لا تتجزأ في الفكر والعمل>>[19]. ولتدعيم فكرته، يلجأ "قاسم أمين" إلى صورة **(النموذج)** الأوروبي والأمريكي، حيث ارتفع فيهما – كما يرى – شأن المرأة من خلال حرية الفكر والعمل، حيث يقول:<< قال سميلون العضو في مجلس شيوخ الولايات المتحدة: (أني أعتقد أن انتشار الفسق في مدننا الكبيرة لا يمكن أن يضيق نطاقه إلا إذا منحت النساء حق الانتخابات>>[20]. يبدو واضحاً من ذلك، إلى أي مدى يعيش "**قاسم أمين**" في خطابه إشكالية المقارنة، حيث يقارن بين رؤية الغرب وثقافته، وبين الواقع العربي الإسلامي. ولما كان الغرب وحداثته يمثل المنظومة المرجعية التي يستمد منها "قاسم أمين" قيمه وأحكامه؛ فإنه ينتقد وضع المرأة في الواقع العربي الإسلامي، حيث يقول :<< ولا أظن أن القارئ يختلف معي في الرأي إن قلت: إن المرأة في نظر المسلمين، على الجملة، ليست إنساناً تاماً، وإن الرجل منهم يعتبر أن له حق السيادة عليها، ويجري في معاملته معها على هذا الاعتقاد، والشواهد على ذلك كثيرة>>[21]. ذلك يفيد مدى تمرد "**قاسم أمين**" على الواقع العربي الإسلامي في مجمله، فهو يهاجم المسلمين عموماً، إلا أنه في موضوع آخر من كتابه<<**المرأة الجديدة**>> يقول:<< ولو أخذ المسلمون برأي الجهال من فقهائهم، وهم أهل الرأي عندهم، لرأوا من الواجب عليهم أن يسجنوا نساءهم وألا يسمحوا لهن بالخروج إلا لزيارة الأقارب في العيدين>>[22]. إن تأثر " قاسم أمين" بمظاهر المدنية الغربية، قد جعل تفكيره مجرد استجابة امتثالية، في إطار التبعية الفكرية للغرب. وإذا كانت المرأة المصرية هي التي ينشغل بها فكر "قاسم أمين" ليخلصها من استبداد الرجل، الذي يتخلص بدوره من الاستبداد السياسي، فيتحقق بذلك التقدم والحرية للشعب بكامله، فقد<<كانت ملك حنفي ناصف (1886-1918م) من المعاصرات لقاسم أمين والرافضات لفكره الذي تشير إليه بقولها <<**الدعوة القاسمية**>>، لأن ملك حنفي ناصف كانت من رائدات تحرير المرأة المصرية من أرضيتها العقائدية الإسلامية وثقافتها العربية، ولعلها كانت من الأوائل الذين روعهم المزج الماكر الذي ربط تحرير المرأة المصرية المسلمة بضرورة تخليها عن عقيدتها وتراثها>>[23]. كان "قاسم أمين" يربط بين الحجاب والحرية، ويرى أنهما وسيلتان لحماية المرأة وصيانتها عن المفاسد، إلا أنه يفرق بينهما ويرفع من شأن الحرية في مقابل الحجاب حيث يقول:<< وأما الحرية فمزاياها هي إزالة جميع المضار التي تنشأ عن الحجاب، وسبق ذكرها وضررها الوحيد أنها في مبدئها تؤدي إلى سوء الاستعمال، ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة إلى أن تعرف مسئوليتها

وتتحمل تبعة أعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية، التي ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح، لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في مكافأة ولاوجود حائل ليس في الإمكان إزالته بل لأنه قبيح في نفسه. وليس من الممكن أن تصل المرأة إلى هذه المنزلة الأدبية مادامت في الحجاب، ولكن من السهل جداً أن تصل إليها بالحرية. تصل إليها كما وصلت إليها غيرها من النساء الغربيات، فإنا نرى أنه كلما زيد في حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها<<(24). يظهر من ذلك، أن "قاسم أمين" يعتقد كالغربيين – بمن فيهم المرأة – أن المرأة الغربية تمثل نموذجاً للحرية والتقدم، إلا أن المرأة العربية الواعية لم تقتنع بذلك النموذج، حيث تقول :<< إن امتداد النموذج والأسلوب والنمط الأمريكي تسرب كالهواء الملوث داخل جدراننا وحيث وجد فراغاً بين أعضاء الأسرة الدولية... . أخاف على المرأة العربية –وسط هذا الضياع – أن تظن أن الأمريكية تنتمي للمجتمع الأكثر تقدماً على وجه البسيطة ويحمل لها تقليد هذا المجتمع الوعد بمساحة أكبر من الحرية والانعتاق>>(25). لقد وضعت المرأة في المجتمع الغربي ضمن ظروف قاهرة، دون أن تدرى، ولا سبيل لها إلا أن تخضع للنظام وقيمه التي لا تفرق بين الرجل والمرأة إنسانياً، حيث تخرج المرأة عن طبيعتها، وتتساوى بالرجل دون اعتبار للفروقات الطبيعية بينهما. <<وتعتقد الحركات النسائية أن تقاعس المرأة عن الاشتراك في الحروب، سببه: إن المرأة بحكم تكوينها البيولوجي تحافظ على الحياة عن طريق الحمل والولادة، بينما الرجل يعرض هذه الحياة للأخطار حياته هو، حين يمارس القنص والحرب على وجه التحديد>>(26). وذلك يفيد أن المرأة الغربية عندما تقوم بأعمال لا تناسب طبيعتها وتعتقد أنها تعمل بحرية، فإنها بذلك تنخدع كبقية أفراد مجتمع الحداثة بوهم الحرية والمساواة، حيث أصبح الإنسان في ذلك المجتمع، مجرد كائن متمثل ، ممتثل، ذو بعد واحد حسب تعبير "**هيربرت ماركيوز**". ويبدو أن "**قاسم أمين** " قد تحول من التعلم إلى الاندماج في الغرب وحداثته، حيث ينفصل بذلك عن الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة. لقد<< نصب قاسم أمين نفسه <<**مصلحاً**>> و<<**موجهاً**>> و<<**مربياً**>> و<<**ناقداً**>>لمصر الإسلامية: يتبنى افتراءات الدوق ويتطوع على أساسها – نيابة عن الدوق وعن أوروبا – للعمل على إدانة الصورة الإسلامية التي لا ترضيهم والدعوة علانية بالتوجه الكلي نحو محاكاة الغرب>>(27). ولما كانت محاكاة الغرب، تعني الاستجابة لأطروحاته دون اعتبار للشروط الثقافية للمجتمع العربي الإسلامي؛ فإن آفاق الحرية تتقلص، بفعل المطابقة مع الغرب. إن "**قاسم أمين**" في تفكيره، يتماهى مع الغرب، حتى وصل به الأمر إلى تجريد الحضارة العربية الإسلامية من كل محاسنها، بل إنه يعيب عليها أنها لم تعرف النظام السياسي المقنن، حيث يقول :<<مهما دققنا البحث في التاريخ لا نجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاماً، فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد، يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين، فكان الحاكم وعماله يجرون في إدارتهم على حسب إرادتهم، فإن كانوا صالحين رجعوا إلى أصول العدالة قدر الإمكان، وإن كانوا غير ذلك خرجوا من حدود العدالة وعاملوا الناس بالعنف، ولم يكن في النظام ما يردهم إلى أصول الشريعة>>(28). وقد كان في كتابه الأول **(المصريون)** يؤكد على وجود نظام سياسي يرجع إليه ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وتفوقها في جميع المجالات، حيث <<يقرر أن المسلمين عرفوا العظمة حين كان لهم تنظيم سياسي إسلامي، وبخاصة حين كانت حياتهم وسلوكهم متطابقين مع الأخلاقيات والوصايا الإسلامية التي بدأت مأساتهم يوم ابتعدوا عنها. ولو كان لي أن أحدد أسباب تخلف العالم الإسلامي لوضعت إهمال تنفيذ التعاليم الدينية على رأس العوامل الهامة لذلك>>(29). كما أنه كان في ذات الكتاب يمتدح نظام الحجاب السائد في عالم الشرق الإسلامي، ويهاجم تحرر المرأة الغربية واختلاطها بالرجال، ويعتبر عدم مخالطة المرأة للرجال من محاسن المجتمع الشرقي، إلا أنه في كتاب <<**تحرير المرأة**>>ينقض ذلك، ويرى أن الحجاب ليس إلا <<عادة مرت بمجتمعات عديدة، ومنها مجتمعات أوروبية، ويقرر أن تطور هذه <<**العادة**>> بل واندثارها أمر ممكن وخاضع لما تخضع له غيرها من << العادات>>.يقول: وذلك لأن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة في العالم .قال <<**لاروس**>> تحت كلمة <<**خمار**>>: كانت نساء اليونان يستعملن الخمار إذا خرجن، ويخفين وجوههن بطرف منه، كما هو الآن عند الأمم الشرقية. وقال: ترك الدين المسيحي للنساء خمارهن وحافظ عليه عندما دخل البلاد، فكن يغطين رؤوسهن إذا خرجن في الطريق وفي وقت الصلاة، وكانت النساء تستعملن الخمار في القرون الوسطى خصوصاً في القرن التاسع، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريباً، واستمر كذلك إلى القرن الثالث عشر، حيث صارت النساء تخفف منه إلى أن صار كما هو الآن، نسيجاً خفيفاً يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد. ولكن بقي بعد ذلك بزمن في إسبانيا وفي بلاد أمريكا التي كانت تابعة لها>>(30). يتضح لنا من ذلك، أن "**قاسم أمين** " عندما

يرجع **(الحجاب)** إلى <<**العادة** >>، فإنه ينزع الطابع الديني، ليحقق غرضه في قبول دعواه، التي يسعى من خلالها إلى تحطيم أهم دفاعات المجتمع الإسلامي، وهي التفوق الروحي. إنه يقول :<<وكأنما نريد أن نمحو العار الذي يلحقنا من هذا الاعتراف، (يقصد الاعتراف بالتقدم المادي الغربي) ونأخذ بثأرنا، فلا نجد وسيلة لذلك إلا أن ندعى أننا أرقى منهم في الآداب، وأنهم إن سبقونا في الماديات ومظاهرها فقد سبقناهم في الروحانيات وسرائرها. وإنما سهل علينا التمسك بهذه الدعوى لأن التقدم في الماديات مما يقع تحت الحس، فلا يمكن إنكاره أما التقدم في الأمور المعنوية فهو مما لا يدرك إلا بالعقل، فلا يقف عليه كل إنسان ويجد المكابر في غيبته عن الحس مجالاً للإنكار، وقد يساعد المكابر في مكابرته ما يراه أو يسمع به في البلاد الغربية من كثرة الملاهي ومسارح الشهوات وغير ذلك من سيئ العادات التي يتبرأ منها الغربيون أنفسهم ويتألمون لانتشارها والعقلاء منهم يسعون في محوها أو تقليلها>>(31).

ومن ذلك يبدو إصرار"قاسم أمين" على تفوق الغرب وحداثته، حتى في الجوانب الروحية والأخلاقية، ليقلل من شأن الحضارة العربية الإسلامية في عيون أهلها، ويبرر بالتالي دعواه في تبني نموذج الحداثة الغربية. لكن << أبرز الكتب التي ردت عليه، مع أنها كثيرة يصعب حصرها، كما يقول الدكتور "فهمي جذعان" منها: "عبدالمجيد خيري " (الدفع المتين في الرد على حضرة **قاسم أمين)** القاهرة ،1899م. وكتاب " **محمد أحمد حسنين البولاقي**" (الجليس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبيس) **القاهرة 1898م**، وكتاب الشيخ "**مصطفى صبري**" **(قولي في المرأة)القاهرة1344ه**.كتابان لطلعت حرب هما **(تربية المرأة والحجاب)** و**(القول الأخير في المرأة والحجاب)**. كتاب "محمد فريد وجدي"**(المرأة المسلمة) القاهرة1912م**.>>(32) إذن، لا يمكن أن تنساق الثقافة العربية الإسلامية وراء وهم المطابقة؛ لأن بداية النهاية لأية ثقافة، تبدأ حينما يلغى أفق المغايرة والاختلاف والذي يمثل شرط الأصالة والمعاصرة معاً. إن خطاب "**قاسم أمين**" يتدرج تحت وهم المطابقة والتماهي مع الآخر ، دون النظر للشروط التاريخية والاجتماعية في كلتا الثقافتين. لذلك يمكن القول: إذا كانت أفكار "**قاسم أمين**" تعكس علاقة ولاء وتبعية فكرية، فهل تمنح تلك الأفكار –التي ينادي بها– الفكر العربي المعاصر رافداً مستقيماً، يستقي منه معالجاته للقضايا الاجتماعية والسياسية؟

إن محاولة تحطيم التكوينات الثقافية والاجتماعية، وتجاهل القيم الروحية دون شرعية يمنحها المجتمع، تؤدي بصاحبها إلى الاضطراب والتناقض.

المصادر والمراجع:

[1]– محمد عمارة، مقدمة للأعمال الكاملة لقاسم أمين ، دار الشروق، القاهرة،1989م،ص:20.

[2]– محمد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة ، دار الشروق، القاهرة، 1989م، ص:20.

[3]– محمد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص:21.

[4]– محمد عمارة ، قاسم أمين الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص:26.

[5]– محمد عمارة ، قاسم أمين الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص:25.

[6]– حذام زهو رعدى، قضايا المرأة العربية المعاصرة ، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، السنة الرابعة والعشرون، العدد(275)، كانون الثاني / يناير 2002م ، ص:134.

[7]– محمد القاضي، عبدالله صولة ، الفكر الاصلاحي عند العرب في عصر النهضة، دار الجنوب للنشر، تونس،1992م، ص:152.

[8]– راجع :محمد القاضي،عبدالله صولة، مصدر سابق، ص:154.

[9]– البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عز قول ، دار النهار للنشر، بيروت،1977م، ص:204.

[10]– نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف(قراءة في خطاب المرأة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت،1999م، ص ص:62–63.

[11]– البرت حوراني ، الفكر العربي في النهضة، مرجع سابق، ص:202.

[12]– نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف(قراءة في خطاب المرأة)، مرجع سابق،ص:29.

[13]– نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف(قراءة في خطاب المرأة)، مرجع سابق، ص:31.

[14]– فادي إسماعيل ، الخطاب العربي المعاصر ،قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،1993م، ص:95.

[15]– قاسم أمين ، تحرير المرأة ، مكتبة الترقي، القاهرة 1899،ص:13.

[16]– عاطف العراقي، ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسية ،القسم الثاني كتب شخصيات من منظور الثورة

النقدية، الجزء الأول الفصل الثالث عشر ، قاسم أمين :المرأة الجديدة، دراسة زينب الحضيري، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، (بدون تاريخ)،ص:318.

[17]- محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر ، دراسة تحليلية نقدية، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء /دار الطليعة بيروت،1982م، ص:55.

[18]- قاسم أمين ، تحرير المرأة، مصدر سابق ،ص:14.

[19]- حليم اليازجي، الحرية والديمقراطية في الفكر العربي الحديث، (بحوث في الفكر القومي)، المجلد الثاني، معهد الإنماء العربي ، بيروت،1985م،ص ص:139-140.

[20]- قاسمأمين،المرأة الجديدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1900م،ص:17.

[21]- قاسم أمين ،المرأة الجديدة، مصدر سابق، ص ص 29-30.

[22]- قاسم أمين، المرأة الجديدة، مصدر سابق، ص:30.

[23]- صافي ناز كاظم، المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين ، قراءة في الأعمال الكاملة ل:قاسم أمين، مجلة الهلال ،العام الثامن بعد المائة، مارس2000م، ص:89.

[24]- قاسم أمين، المرأة الجديدة، مصدر سابق ،ص:48.

[25]- نهى سمارة، المرأة العربية ، نظرة متفائلة، دار المرأة العربية، بيروت،1993م، ص:25.

[26]- نهى سمارة، المرأة العربية، نظرة متفائلة، مرجع سابق، ص:18.

[27]- صافي ناز كاظم ، المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين، مرجع سابق، ص:91.

[28]- قاسم أمين ،المرأة الجديدة، مصدر سابق، ص:110.

[29]- محمد عمارة ، قاسم أمين، الأعمال الكاملة ، مصدر سابق،

[30]- ص ص: 90-91.

[31]- محمد عمارة، قاسم أمين، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص: 58.

[32]- قاسم أمين، المرأة الجديدة، مصدر سابق، ص:117.

[33]- زكي الميلاد، الفكر العربي المعاصر وتجديد النظر في قضايا المرأة، مجلة الكلمة، العدد(29)، السنة السابعة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، خريف 2000م، ص: 12.